

هصر الحقار في مصر الإسلامية

## الحاكم بأمر الله

— ٢ —

الأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٣ —

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة حدثاً دون الثانية عشرة<sup>(١)</sup>؛ وكان مولده بالقصر الفاطمي بالقاهرة الميزية في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥ (١٣ أغسطس سنة ٩٨٥)، وأمه نصرانية من الملكية، وكان لها أيام الميزيز نفوذ كبير في الدولة، حتى أنه عين أخوها بطريقين للملكية، أحدها بالاسكندرية، والآخر لبيت المقدس، مخالفاً بذلك الرسوم الكنسية المقررة؛ وكان من أثر نفوذها أن سياسة التسامح الديني التي اتبعت في عهد الميز، قويت أيام الميزيز، وتمتع النصارى واليهود بكثير من الحريات والنفوذ. وقد كان لهذا المنبت أثره بلا ريب في نفس الحاكم، وتكوين عقليته الدينية كما سترى؛ ولم يترك الميزيز من البنين سوى الحاكم<sup>(٢)</sup>، ولكنه ترك - من زوجه النصرانية أيضاً - ابنة تدعى سيدة الملك، كانت أكبر من أخيها بيضمة أعوام؛ وكانت حازمة عاقلة ذات نفوذ. ومنح الميزيز ولاية عهده لابنه الحاكم مذ كان طفلاً في الثامنة (شعبان سنة ٣٨٣) وبويع بالخلافة يوم وفاة أبيه. وقد انتهى إلينا وصف لبعض المناظر التي أحاطت بتولية الخليفة الصبي، وهي مناظر شائقة مؤسفة معاً، نقلها إلينا المسبحي، وهو مؤرخ معاصر ووزير الحاكم وصديقه، نقلاً عن الحاكم ذاته؛ قال: «قال لي الحاكم، وقد جرى ذكر والده الميزيز: يا مختار، استدعاني والدي قبل موته وهو عارى الجسم، وعليه الخرق والضاد، فاستدناى إليه وقبلني وضمنى إليه،

(١) كان عمره بالنسبة إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام (الميزيزى ٤ - ٦١)

(٢) رزق الميزيز قبل ولده الحاكم، ابن يسمى مجداً، ومنحه ولاية عهده، ولكنه توفي قبل وفاته (نهاية الأرب - نسخة دار الكتب المتوغرافية ج ٢٦ ص ٥٠)

وقال: واغمى عليك يا حبيب قلبي؛ ودمعت عيناه. ثم قال: امض يا سيدى والعب، فأنا في عافية، قال: فضيت، والنهيت بما يلتقى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى الميزيز إليه. قال: فبادر إلى برجوان، وأنا في أعلى جيزة كانت في الدار، فقال: انزل ويحك، الله الله فينا وفيك؛ قال: نزلت، فوضع العمامة بالجواهر على رأسى وقبل لى الأرض، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قال: وأخرجني حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة، فقبل جميعهم لى الأرض وسلموا على بالخلافة<sup>(١)</sup>»

وقع هذا النظر في مدينة بلبس حيث أدرك الميزيز مرض موته كما قدمنا؛ وفي صباح اليوم التالي - وهو يوم الأربعاء ٢٩ رمضان - سار الحاكم إلى عاصمة ملكه في موكب نغم تظلمه أبهة الخلافة، رهيب يظلمه جلال الموت؛ وأمامه جثة أبيه، وقد وضعت في عمارية برزت منها قدماء؛ وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلي، وبين يديه البنود والرايات؛ وقد ارتدى دراعة مصمت وعمامة بكللها الجواهر، وتقلد السيف، ويده رمح. فدخل القاهرة عند مغيب الشمس في هذا الحفل الرهيب الفخم؛ وفي الحال أخذ في تجهيز أبيه؛ فتولى غسله قاضى القضاة محمد بن النعمان، ودفن عشاء إلى جانب أبيه الميز في حجرة القصر. وفي صباح اليوم التالي، أعنى يوم الخميس، بكر سائر رجال الدولة إلى القصر، وقد نصب للخليفة الصبي في الإيوان الكبير، سرير من الذهب، عليه مرتبة مذهبة؛ وخرج من القصر إلى الإيوان راكباً وعلى رأسه معممة الجواهر، والناس وقوف في صحن الإيوان فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه، وسلم عليه الجميع بالأمامة وباللقب الذى اختير له وهو: «الحاكم بأمر الله» ونودى في القاهرة والبلدان، أن الأمن موطن والنظام مستتب، فلا مؤونة ولا كلفة، ولا خوف على النفس أو المال<sup>(٢)</sup>

وأوصى الميزيز قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة

(١) راجع ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠١) ولم يصل إلينا تاريخ المسبحي ذاته، وإنما وصلتنا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين

(٢) نقل إلينا ابن خلكان وصف هذه المناظر عن صاحب تاريخ القبروان (ج ٢ ص ٢٠١). وراجع أيضاً خطط الميزيزى (ج ٤ ص ٦٨) والنجوم الزاهرة (ج ٣ ص ١٢٣)

واستعاد دمشق؛ واشتبك مع الروم (البيزنطيين) في عدة معارك في شمال الشام، وكانوا قد انتهزوا فرصة الاضطراب للاغارة على الثغور وتأييد الخوارج؛ فهزمهم وردهم إلى الشمال. وسير رجوان جيشاً آخر إلى برقة حيث اضطرت الثورة، فرد النظام اليها، واستعمل عليها يانسا الصقابي. وكانت الدولة الفاطمية منذ نشأتها تعتمد على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبية؛ ويستأثر زعمائها بمعظم مناصب القيادة والحكم والادارة حتى عهد المزمز لدين الله؛ ولكن ولده المزمز مال إلى اسطنغ الموالى من الترك والصقالبة فقدمهم في القصر وفي الجيش، وبدأت المنافسة من ذلك الحين بينهم وبين الزعماء والمغاربة<sup>(١)</sup> وكانت سياسة رجوان ترمي إلى تحطيم نفوذ الزعماء المغاربة، وتزعيم عن الولايات والثغور؛ وتوزيع السلطة على نفر من أصدقائه الصقليين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وأن يسيرهم طبق أهوائه؛ فعين إلى جانب يانسا طائفة منهم لحكم الولايات والثغور، مثل ميسور الخادم والى طرابلس، ويعين الخادم والى غزوة وعسقلان، وعين بالقصر عدداً كبيراً منهم<sup>(٢)</sup> وجنح الروم بعد هزيمتهم إلى السلم، وعقدت بين بلاط القاهرة والأمبراطور بزيل الثاني قيصر قسطنطينية أوامر الصداقة والمهادنة مدى حين<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

ماذا كان موقف الحاكم خلال هذه الفترة الأولى من خلافته؟ لقد كان رجوان بلا ريب يحجبه ما استطاع عن الانصال برجال الدولة وبشئونها، ويدفع به ما استطاع إلى مجالى اللوم واللعب؛ وكانت أم الحاكم وهي نصرانية كما قدمنا، تشهد ولدها ينمو ويتوسع في ظل هذه الوصاية الخطرة عاجزة عن التدخل لحمايته أو توجيهه، لأن رجوان لم يفسح لها أى مجال للتدخل في شئون الدولة. غير أن الحاكم كان يشعر رغم حداثة بخطورة المنصب الذى يتبوأه؛ ولم يلبث أن استرعى سير الأمور اهتمامه، ولم يلبث أن فطن إلى موقف رجوان، واستنثاره بالسلطة واستبداده بالشئون. ولما بلغ رجوان ذروة السلطان والنفوذ، كان الحاكم قد أشرف على الخامسة عشرة، وأضحى الطفل

هم رجوان الصقابي خادمه وكبير خزائنه؛ والحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة، أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها؛ ومحمد بن النعمان قاضى القضاة. وعهد بالوصاية الفعلية إلى الأول والثانى. وكان رجوان، ويسمى أبا الفتح، خصياً صقلياً، ربي فى القصر، واصطفاه العزيز بالله وولاه أمير القصر، وخلع عليه لقب «الأستاذ» وهو من ألقاب الوزارة فى الدولة الفاطمية، وعهد اليه بمهام الأمور، وأولاه ثقة عظيمة. وكان ابن عمار رجلاً قوى الشكيمة، وافر المصبة؛ ولكن رجوان كان بطروفه وطبيعة منصبه أوثق اتصالاً بالخليفة الصبى، وأشد تأثيراً فيه ومقدرة على توجيهه؛ فلم يلبث أن نشب الخلاف بين الرجلين واشتدت المنافسة بينهما، وقام ابن عمار بتدبير الشئون بادية بدء، وتلقب بأمين الدولة، وهو أول لقب من نوعه فى الدولة الفاطمية؛ واقتسم الكتاميون من حبه وشيخته السلطات والمناصب، وعانوا فى شئون الدولة ومرافقتها؛ وحرضه بعضهم على قتل الحاكم والتخلص منه فأبى استصناراً لشأنه أو رهبة من العواقب؛ ولكن رجوان كان ساهراً يرقبه ويتلمس الفرص لتناوته وإسقاطه، ويدس له الدسائس، ويؤلب عليه زعماء الجند الناقين عليه؛ فلم يمض عام حتى تفاقمت الصواب والأحقاد من حوله؛ ووثب جماعة من الزعماء والجند بتحريض رجوان بالكتاميين وأتخنوا فيهم، فتوارى ابن عمار، واضطر أن يترك الميدان حراً لمنافسه<sup>(١)</sup>، عندئذ قبض رجوان على زمام الأمور، واستأثر بكل سلطة حقيقية داخل البلاط وخارجه، واختار لمعاونته كاتباً نصرانياً يدعى فهد بن ابراهيم ولقبه بالرئيس، وفوض اليه النظر والتوقيع والمراجعة. ولزم رجوان الحاكم، يقيم معه بالقصر، ويسهر على توجيهه، ويستأثر لديه بكل صلة ونفوذ؛ واستبد بكل أمر فى الدولة؛ واستقرت الأمور حيناً

واستمر رجوان يتبوأ ذروة القوة والنفوذ زهاء عامين ونصف؛ وفى عهده وقعت عدة ثورات وقلاقل فى الشام والمغرب، وحاول بعض الحكام والزعماء المحليين الخروج على حكومة القاهرة؛ فسير رجوان جيشاً إلى الشام بقيادة جيش بن الصمصامة، فقاتل الثوار فى عدة مواقع، وأخضعهم تباعاً،

(١) القرزى - ج ٤ ص ٦٨ - وج ٣ ص ١٧ و ١٨

(٢) القرزى - ج ٣ ص ١٨

(٣) ابن الأثير - ج ٩ - ص ٤٢

(١) راجع ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠١) - وابن الأثير (ج ٩

ص ٤٠ و ٤١) والقرزى (ج ٣ ص ٥٧٤)

وفي نفس المساء اتخذ الحاكم عدته لتوطيد الأمور ، واستدعى الرئيس فهدا ، وهدا روعه وأقره في منصبه ؛ وصودرت أموال رجوان وكانت عظيمة طائلة ، واحتفى أصدقائه من الميدان<sup>(١)</sup>

— ٤ —

وهكذا ظفر الحاكم لتحو أربعة أعوام فقط من ولايته بأن يطوى مرحلة الحداثة ، وأن يستخلص السلطة لنفسه ، وأن يبدأ عهد الحكم الحقيقي . وكان الحاكم يومئذ في نحو الخامسة عشرة من عمره ، مضطرب النفس والأهواء ، ولكن وافر الذكاء والجرأة والعزم . فبدأ بتعيين مدير للدولة مكان رجوان ، ووقع اختياره على الحسين بن جوهر الصقلي . وكان العزيز قد ولاء القيادة بعد وفاة أبيه جوهر ، واصطفاه وأولاه ثقته وعطفه ، فلما توفي العزيز قُتل الحسين ديوان البريد والانشاء ؛ ولما قتل رجوان لم يكن بين رجال الدولة من هو أرفع منه مقاماً وأجدر بتولى الشؤون العامة ؛ فاستدعاه الحاكم وخلع عليه ، وقلده النظر في أمور الدولة والتوقيعات ، ولقبه في سجل التعيين «بقائد القواد» وعكف الحسين على تدبير الشؤون بمعاونة خليفته الرئيس فهدا ، وأمر أن تبلغ إليه المهام والظلمات في مكانه بالقصر وألا يقصد أحد داره ، وألا يخاطب بغير لقبه الرسمي «القائد» دون تعظيم أو تفخيم ، وألا يمتنع أحد من مقابلة الحاكم أو الاتصال به ؛ وغدا الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، الذي خلف أباه في منصب القضاء ، أعظم رجلين في الدولة ؛ واستمر الحسين يدير الأمور مدى أعوام حتى تغير عليه الحاكم كما سيأتي وتناول الحاكم إدارة الدولة العليا بيديه ؛ ونظم له مجلساً ليلياً يحضره أكابر الخاصة ورجال الدولة ، وتبحث فيه الشؤون العامة ؛ وكانت هذه أول ظاهرة لهيام الحاكم بالليل والتجوال في ظلماته . بيد أنه أبطل مجلسه الليلي بمد حين . وتوفي جيش ابن الصمصامة والى الشام ، فمِن الحاكم مكانه فخل بن تميم ، ولما توفي لأشهر من ولايته عين مكانه على بن فلاح ؛ وكان أنجاه الحاكم يومئذ نحو إقصاء الأتراك والصقالبة وتمكين المغاربة ، كما كان الشأن أيام جده المرز ، ولعله كان يقصد في ذلك أيضاً إلى هدم سياسة رجوان في اصطفاء الصقالبة . ووفد عليه ولد جيش بن الصمصامة يحمل وصية أبيه التي يوصى فيها بجميع أمواله

فتي يافماً شديد اليقظة والطموح . وكان رجوان يذهب في طفيلانه وعسفه الى حدود بمسدة ، ويشير حوله ضراماً من البنضاء والحقد ، ويحفر بذلك خصومه داخل البلاط وخارجه الى العمل على تفويض سلطانه ومكانته . واعتقد رجوان أن الجو قد خلاله ، فانكب على ملاهيه وملاذه ، يقضى معظم أوقاته في مجالس الأنس والغناء والطرب ، ولم يفتن رجوان من جهة أخرى الى ما وقع في نفس الأمير الفتى ومشاعره من التبدل والتطور ، فاستمر يعامله معاملة الطفل المحجور عليه ؛ وذهب في استهتاره الى مدى شمر الحاكم أنه لا يتفق مع مقامه ومكانته ، وربما ذهب رجوان الى حد الاساءة الى الحاكم ونقض أوامره ، بل الى حد إهانته والتشكر له ، ويقص علينا القريري منظرآ من هذه المناظر التي اجترأ فيها رجوان على إهانة سيده خلاصته : « أن الحاكم استدعاه ذات يوم وهو راكب معه ، فسار اليه وقد نثى رجله على عنق فرسه ، وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم » ، ونحو ذلك من المناظر والاهانات المثيرة<sup>(١)</sup>

أحفظت نفس الحاكم لهذا الضنط وهذا الاجترار ، فأضمر التخلص من ذلك الوصي الطاغية ، وربما تأثر في هذا العزم بتحريض بعض خصوم رجوان ولاسيما ريدان الصقلي حامل المظلة وخصمه القوي داخل البلاط ؛ ولكن لا ريب أن الحاكم كان قد بدأ يومئذ يشور لسلطته السلوية ، وأخذت تتفتح في نفسه الوتابة تلك الأهواء العنيفة المضطربة التي بلغت ذروتها فيما بعد . وعلى أي حال فقد حيك على رجوان بالموت ؛ وفي ذات مساء بعث إليه الحاكم للركوب معه ، وانتظره في إحدى حدائق القصر ومعه ريدان حامل المظلة ، فوافاه رجوان هنالك ؛ وبعد أن سلم سار الحاكم حتى خرج من باب الحديقة ، فوثب ريدان عندئذ على رجوان فطمته في عنقه بسكين ، وانقضت عليه جماعة كانت قد أعدت للقتل به ، فأثخنوه طمناً بالخناجر ، واحتزوا رأسه ، ودفنوه حيث قتل (ربيع الثاني سنة ٣٩٠ - ٤١٠٠٠) ولما عاد الحاكم إلى القصر كان خبر مقتل رجوان قد ذاع على لسان خادمه عقيق ، فاضطربت البطانة ، وأشرف الحاكم عليهم ليرى الخبر ؛ وصاح فيهم ريدان : « من كان في الطاعة فليصرف إلى منزله ويسكر إلى القصر الممور » فانصرف الناس منزعين ،